المجتمع كورشة لإعادة بناء الحداثة عند يورغن هابرماس

د.أحمد عطار[1]

يقسم الدارسين لفكر يورغن هابرماس فلسفته إلى خمس نظريات[2] كبرى هي:النظرية اللغوية، النظرية العقلانية التواصلية، النظرية الأخلاقية، النظرية السياسية، النظرية الاجتماعية، هذه الأخيرة التي تعتبر من هم ورشات إعادة بناء المجتمع المعاصر فما هي فحوى هذه النظرية؟

5-1 ثنائيات العمل/التفاعل، النسق/ العالم المعيش.

تنطلق النظرية الاجتماعية عند "هابرماس" في التمييز بين شكلين محورين "للحالات الاجتماعية": هما "العمل" و"التفاعل" (travail/interaction) وكلاهما ينتج مفهومين عن العقلانية متعارضين بشكل كبير، ويستند كلاهما على عالمين اجتماعيين متمايزين، ينتسب العمل إلى: القطاع الأول: وهو نظام المنظومات الاجتماعية ونسميه اختصارا "النسق"*، (system)، ويؤدي تطور المجتمعات الحديثة إلى تعقد متنامي للمنظومات الاجتماعية.

القطاع الثاني: هو مجال "العالم المعيش" Monde vecu الذي يقابل " النسق"** هذا ما يميز الحداثة فهذه الثنائية العميقة بين العالمين: عالم العقلانية الغائية، الخاص بالأنظمة الفرعية الاقتصادية والسياسية والإدارية (المال والسلطة)، تهيمن على العالم المعيش (G) Lebenswelt، لذا يصبو "هابرماس" إلى أن يقاوم هذا الاستعمار بزيادة عقلنة "العالم المعيش"، فالعقلانية التواصلية تشكل وسيلة لإعادة إنتاج البنيات الرمزية لهذا

---

1 - أستاذ محاضر، جامعة تلمسان

2- جيمس جوردن فينليسون، يورغن هابرماس مقدمة قصيرة جدا، ترجمة احمد الروبي، هنداوي، الطبعة الأولى، مصر، 2015، ص 241.

* يستفيد هابرماس من مفهوم النسق (أو النظام في ترجمات أخرى) لصديقه عالم الاجتماع الألماني لوهمان نيكلاس.

** أنظر الشكل رقم: 10 في الملحق.

العالم، فالفعل التواصلي سيقلل من زحف أوليات الاندماج المنظومي الخاصة: "المال والسلطة".

بذلك يعيد العقل التواصلي:إعادة الإنتاج الثقافي(الشخصية)، والاندماج الاجتماعي (بواسطة القانون[1] loi) والمجتمع (العائلة)، ذلك أن الأزمة في المجتمعات الرأسمالية المتأخرة اليوم هي نتيجة التنافر بين نوعين متعارضين من الاندماج: اندماج النسق، واندماج العالم المعيش، من حيث أنهما يختلفان في القيام بهذه العملية رغم أنها من وظائف الثاني.

والحال أن هذا التوازن بين العالمين ضروري، للسير الجيد للحداثة التي لولاه لأصبحت ذات بعد واحد***، أي لصالح أوليات الاندماج الاجتماعي (النسق)، إذا هابرماس يقف هنا بشبه كبير مع "ماركس" في معالجته لأزمة المجتمع البرجوازي والتحذير من أزمة سببتها تناقضات رأسمالية، لكن باختلاف في اهتمام الأول "بالتفاعل" على حساب "العمل"، كما هو عند الثاني.

أن الشرخ العميق بين النسق والعالم المعيش*، الذي كان أساس التصور الثنائي للحداثة، انتهى إلى إفساد النموذج الرأسمالي للبنايات الرمزية للعالم المعيش، أي أنه تم "تشيؤها" من طرف متطلبات النسق (منظوماته الفرعية: المال والسلطة)، وهذا ما كان اكبر مآخذ الرعيل الأول لمدرسة فرانكفورت على الحداثة، مما أجبر "هابرماس" على تعديل الرؤية الماركسية في تحريك البنية التحتية للفوقية، ويجد أن البيروقراطية والسوق وقوننة العلاقات الاجتماعية أدتا إلى انحرافات الحداثة.

إذا هابرماس يصف الحداثة، كتصاعد لاستعمار النسق للعالم المعيش، فالاقتصاد والسياسة أي المال والسلطة، كوسائط ضبط قامتا بتحقيق الاندماج الاجتماعي بالإكراه، فالاندماج ينجز بواسطة عناصر غير شخصية، وغير معيارية normative، فلقد

---

1 مجموعة من المؤلفين، فلسفة الحق عند يورغن هابرماس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ط1، المغرب، 2008، ص199.

*** على حد تعبير "هربرت ماركيوز" في كتابه:"الإنسان ذو البعد الواحد".

* انظر الملحق، الجدول رقم 01، العلاقات بين النسق والعالم المعيش داخل مستويات النسق.

حقق النسق تصورا وظيفيا للأنظمة الاجتماعية، وهذه النزعة الوظيفية جعلت المهمة الوحيدة هو الإدماج بأي طريقة، في حين أن هابرماس ينتقد هذه الحالة الكارثية، ويقترح أن يكون الاندماج حالة يحققها العالم المعيش عبر اللغة التواصلية، فهي ليست وسيلة للاندماج المنظومي، ولكنها الأساس الذي يستند إليها العالم المعيش عندما يعمل بشكله الطبيعي.

نظرة سريعة لعمل النسق نجده يتحرك وفق النظرية التالية: « في كتاب "الاقتصاد والمجتمع "Economy and society"(E) يجد "بارسونز" دور المال كوسيط رمزي للتفاعل المعمم، خاص بالنظام الفرعي الاقتصادي، وسيط له نفس القيمة كالوسائط الأخرى (التعهد، النفوذ، السلطة)، وكوسيلة مرجحة لتوجيه الفعل الإنساني، نحو أهداف محددة...يقدم المال ويطلب السلعة: هذه هي المعادلة العامة التي يقوم بها الفاعل، ويحرك شريكه الذي يعرض عليه هذه الحالة كطريقة أساسية للتبادل، وينتظر من الأخر أن يقوم معه بنفس الطريقة».[1]

05/02- تبديل وسيط المال باللغة في العالم المعيش:

كما هو موجود في عالم الأنساق (أو النسق) وسائط تحدد بالأخص في: المال والسلطة فان العالم المعيش له كذلك وسائطه، لكن لنتحدث أولا عن الحالة الأولى التي يعود فيها «هابرماس كما ذكرنا سابقا "إلى "كتاب "الاقتصاد والمجتمع" "لبارسونز" Parsons الذي يجد في المال وسيط رمزي للتفاعل، خاص بالأنظمة الفرعية الاقتصادية، وسيط له نفس القيمة كالوسائط الأخرى (التعهد، النفوذ، السلطة) وكوسيلة مرجحة لتوجيه الفعل الإنساني نحو أهداف محددة خاصة.»[2]

يلعب المال دور الوسيط بين الذوات في العلاقات الاجتماعية«"فيقدم المال وتطلب السلعة، هذه هي المعادلة العامة التي بها يتعامل الفاعل ويحرك شريكه الذي يعرض عليه طريقه أساسية للتبادل والفائدة، وينتظر أن يقوم الآخر بنفس الأسلوب»[3]، بالنسبة لبارسونز يلعب المال صفة رمزية خالصة فهو لا يحمل أي قيمة في ذاته كونه

1 -Aldo Haessler, sociologie de l'argent et postmodernité, Ddroz, Genève-, Paris, 1995, p 117.
2 -Ibid, p 117
3 - Ibid, p 117

مجرد وسيلة للتبادل لها قيمة معينة عبرها تظهر العلاقة البسيطة التالية: "المال، القيمة، الاستعمال".

«"يطور هابرماس في كتابه: "نظرية الفعل التواصلي"، بطريقة نقدية الرؤية البارسونوزية: فيستعير منه التناظر الوظيفي والتماثلي بين اللغة والمال، وفي نفس الوقت ينقد التمثل النقدي monétaire الذي يضعه بارسونز بين كل الوسائط. »[1] بمعنى أن هناك تشابه بين القيمة والعملية الرمزية الخاصة بالمال واللغة، وما يشكله المال من وسيط في الأنظمة الفرعية كالاقتصاد قد تلعبه اللغة كوسيط رمزي تفاعلي داخل العالم المعيش وبنفس مستوى تفعيل وتقوية المال داخل النسق يرجو هابرماس أن ترتفع وتقوى عقلنة اللغة في العالم المعيش«"الفاعلية التواصلية تعمل بأخلاق استطرادية فتستبعد كل أشكال الوسائط التقنية والعقلانية الأداتية كالسلطة والمال كنماذج للتنظيم في العالم المعيش التي تسارع في استعماره الداخلي حين تحاول أن تعوض بعض الأشكال التنظيمية اللغوية بتنظيمات نقدية "مالية" من صميم النسق.»[2]

يصبح هابرماس دقيقا في مطلبه تعويض وسيط المال بواسطة اللغة الذي من المفروض أنه الوسيط الطبيعي لهذا العالم، فيرجو أن يرسم خطا حول هذا العالم مقابل عالم الاقتصاد. انه إغلاق للنسق الاقتصادي فتبقى وظائفه داخل حدوده، مما يحصن الميادين الأخرى كالفعالية الإنسانية ويعصمها عن الانجراف للتشيؤ Réification والاغتراب الذي يسببها النسق.»[3].

يسعى هابرماس بنقد النظرية البارسونزية الاستفادة من معادلتها تعويض المال باللغة، "فبالنسبة لبارسونز المال هو مجرد رمز خالص... تقف في المعادلة التالية:

(المال/القيمة/الاستعمال)»[4] "فاعتبار اللغة كأحد وسائط الضبط بدل المال والسلطة، سيجعل الاندماج الاجتماعي في العالم المعيش يبني على التفاهم المتبادل، ويفترض مشاركة الفاعلين بدل إقصائهم، أو تسيرهم من طرف ممارسات قمعية.

1 -Ibid, p 118.
2 - Ibid,p 119.
3 -Ibid, pp 119-120.
4-Ibid, pp 117,118.

بذلك تتم إعادة خلق دائم للتراضي والتضامن Solidarité بواسطة التواصل، وتعد هذه النظرية في الفعل السيسيولوجي التي استلهمها هابرماس من أعمال: علماء الاجتماع، كفيلة في تصوره للحد من تدخل عالم النسق في عالم المعيش »[1].

فالتطور الصناعي (التحديث) قد أدى إلى عدم توازن متصاعد بين النسق والعالم المعيش، حيث أن الإنتاج المادي للمجتمعات الحديثة أصبح يسحق البعد الاجتماعي الخاص بالفاعلين، ويشوه تأويلهم لاتجاهاتهم الثقافية المكونة للأفراد المتضامنين، ذلك أن ما يحكم العالم المعيش وآليات عمله مختلفة تماما عن قواعد عمل النسق، عند هذا الحد نفهم التمييز الهابرماسي بينهما، وفي نفس الوقت بين عقلانيتين تحكمان هذين العالمين المختلفين:

العقلنة الأولى: مرتبطة بالعمل (عالم النسق) وهي موجهة للنجاح، منظمة حول حركات قصدية، إمكانية خاصة بالفعل الغائي، وتزيد التقنية والعلم في درجة عقلنيتها.

العقلنة الثانية: مرتبطة باللغة (العالم المعيش)، وهي موجهة للتفاهم المتبادل، ذلك أن هابرماس يتميز عن ماركس في إعطائه الدور الأول للفعل التواصلي عوض الفعل الانتاجي، والتفاعل دوره Interaction على العمل Travail»[2] ووسيط اللغة على المال، فالعقلنة في الفعل التواصلي تسعى لجعل خصوصية ومنطق، يلائم عالم الإنسان وما يحمله من تصورات رمزية لا تقل أهمية عن العالم المادي.

بعد هذا التمييز بين القواعد المتحكمة في كلتا العالمين نعود إلى العملية التي ينوي هابرماس القيام بها فمن حيث "الطريقة التي يتعامل بها هابرماس مع مفهوم "المال"، يوضح كيف يلاقي بين الميراث الفيبري والنسقية البارسونزية، بالإبقاء على ضرورة تخصيص حيز معين، تكون فيه الحسابات الاقتصادية هي السيدة.»[3]

بما أن هابرماس يعطي أولوية للتفاعل التواصلي على الفعل الغائي، فإنه يجعله مخرجا من الصورة القاتمة للحداثة، فالتحول الهائل الذي رصده "ماكس فيبر" في صدد

1 -Aldo Haessler, sociologie de l’argent et postmodernité, p,118.

2 -مصدق حسن، أزمة الدولة الوطنية وآفاق نماذج الشرعية السياسية الجديدة عند يورغن هابرماس، مجلة مدارات فلسفية، العدد 10، المغرب، 2004، ص 82.

3 -Aldo Haessler, sociologie de l’argent et postmodernité, op.cit, p120.

حديثه عن ميلاد العقلانية الغائية، جعل هابرماس يعيد شرح هذا التأثير الكبير الذي وقع في العالم المعيش، في مستوياته الثلاثة (الثقافة، المجتمع، الشخصية)، ليشرح هابرماس المشكلات الفيبرية الثلاث على النحو التالي:

أولا الثقافة: يحدث الشرخ في الثقافة بسبب قيام العقلنة بإفقاد العالم سحره، ومع فقدان الإنسان لرؤيته العاطفية للعالم تنهار عند كل القداسات التقليدية.

ثانيا المجتمع: الانفصال عن أشكال الحياة التقليدية، يفقد الناس معنى القيم وهذا شرح في المجتمعات مما سيمحو التضامن والتكامل الاجتماعي.

ثالثا الشخصية: الانفصال عن الدين، يجعل الأفراد يتوهمون في قلق حياة ليست لها أهداف مطلقة، هذا شرخ في الشخصية.

5-3 التكامل الوظيفي بين "جروج ميد" و"دوركهايم".

يعتبر "ماكس فيبر" و"ميد" Mead و"دوركهايم" من أهم المساهمين في علم الاجتماع الحديث وهذين الأخيرين يطوران مفاهيم مركزية بإمكانها أن تستوعب النظرية الفيبرية للعقلنة فهما يخلصانها من إحراجات apories فلسفة الوعي، بواسطة التفاعل عند "ميد" Mead وفضل نظرية التواصل، وعند دوركايم بفضل نظرية التضامن الاجتماعي théorie de la solidarité sociale التي تجعل في آخر المطاف العلاقة متساوية ومتبادلة بين الدمج الاجتماعي intégrations sociales والدمج في النسق.

إن مشروع "ميد" Mead هو بناء جماعة communauté تواصلية مثالية بالرغم من كل ما قاله منتقديه بأنها طوباويات، لكنها حسبه مسعى صريح لتحقيق تواصل بينذاتي متين يجعل من الممكن قيام تواصل بدون عراقيل بين الأفراد، كما أنها تقيم هوية للفرد حرة ومتصالحة مع ذاتها، ورغم الاعتراف بمحدودية هذه النظرية التواصلية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفسر بطريقة كافية إعادة إنتاج المجتمع في كلية فقط من جانب للعقلانية التواصلية، لكن هذا ممكن لإعادة الإنتاج الرمزي la symbolique reproduction للعالم المعايش لمجموعات معاد تأسيسها من وجهة داخلية»[1].

1-Habermas J, théorie de l'agir communicationnel T2, rationalité de l'agir et rationalisation de la société, Tr; Jean-Louis Schlegel Ferry, Fayard, 1987, p142.

يريد هابرماس في بداية الأمر تتبع الطريقة التي قام "ميد" Mead بإنتاجها وتطوير الإطار المفهومي "القاعدي للتفاعل" والتشارك بمعايير "اللغة" المتوسطة بين المتحاورين، فهي تتبع مراحل تكوين التفاعل منذ بدايته كحالة طبيعية غريزية مرورا بحركاتها ورموزها، أي إنه يمكن للغة أن تقوم بتأسيس الأخلاق على قاعدة "التضامن الاجتماعي" المتضرر بسبب الحداثة وكلها مساعي لتأسيس وضع قوي للغة في الحياة اليومية.

بذلك يمكننا الدخول لفهم عقلانية العالم المعايش كوسط مختلف كليا بنظامه الرمزي عن النسق وهو مشروع هابرماسي يريد تخطي الحدود المفهومية للنظرية "الفيبرية" للعقل الموجه لغاية وللعقلانية الغائية.

إن نموذج: ذات /الموضوع كما تم تقديمه في فلسفة الوعي سيتم تجاوزه في بداية القرن العشرين من جانبين: أ) جانب الفلسفة التحليلية، ب) ونظرية علم النفس السلوك، ففي هذا الأخيرة سيتم تعويض الحدس النفسي واستنباط ظاهرة وعي الأنا بتقنيات لا تستدعي الحدس، بل تقترح تحليلات ترتكز على تجارب لغوية، أو على الملاحظة الخارجية للسلوك.

هاهنا تظهر أهمية هذين النقدين الموجهين "للوعي" علما أن مصدرهما واحد على حسب هابرماس وهو براغماتية بيرس Pierce، كما أنهما يشتركان في كونهما أحد المنابع الأساسية لنظرية G.H.Mead "ميد" حول التواصل كونهما يمثلان تقليدان نقديان "للوعي" العائدان كما قلنا إلى "بيرس"، لكن "ميد" سيهتم بالجانب الثاني كما أسلفنا الذكر.

لم يهتم "ميد" كثيرا بنتائج المنعطف اللغوي بقدر اهتمامه بالعلم النفس الاجتماعي الذي يركز على نقطة دراسة ظاهرة الوعي تحت القضية التالية: "بالنسبة للإنسان إن الاختلاف الوظيفي الذي يتطور بفضل اللغة يقدم مبادئ تنظيمية مختلفة بشكل جذري؛ هي لا تنتج فقط بنماذج أفراد جدد ولكن كذلك بمجتمع جديد بأكمله، ويعطي "ميد*" نظريته اسم behaviorism social لتشير إلى توجهها النقدي للوعي".

* "ميد جورج هربرت Med George Herbert (1863-1931)، ولد في ماساشوتز وبعد دراسته في هارفرد انتقل إلى برلين، ثم درس علم النفس الاجتماعي في شيكاغو(واهتم بالتفاعلية الرمزية) ونشر كتابه الأساسي: Le Moi, L'esprit et la société,1934.

نعيد ونذكر أن الاتجاهين النقديين للوعي سيلتقيان عند "تصور بيرس"** للحقيقة فنظرية السلوك والتحليل اللغوي هما عماد نقد فلسفة الوعي رغم أن "ميد" لم يحتفي كثيرا بالتحليل اللغوي إلا من خلال الرموز اللسانية، كان "ميد" Mead يهتم بالرموز اللسانية لكن فقط في إطار توسطهما للتفاعل interactions كونها تلعب دور الوسيط لتنسيق النشاطات الإنسانية وتكتفي بمعالجة التواصل اللغوي تحت عامل aspect الدمج الاجتماعية l'intégration social والتنشئة la socialisation.

يستفيد هابرماس كثيرا من "علم النفس الاجتماعي" "لميد" كونها تساعده على تقديم تصور جيد لمفهوم التواصل العقلاني وأهمية اللغة في الدمج الاجتماعي socialisation ومن جانب آخر يريد توضيح كيف يجعل من الممكن العبور من l'interaction (التفاعل المتوسط بالرموز) إلى "التفاعل المدار بواسطة قواعد لأجل بلوغ وتشكيل هوية الذوات الجماعية"*** القويمة، صحيح أن مع "ميد" لا يبلغ هذا التنظيم مداه الأقصى، لكن يمكن تغطية نقصها عبر النظرية الدوركايمية حول "أصل الدين والطقوس" إضافة لبحوث "ميد" حول التنشئة الاجتماعية وسيرورة اندماج الطفل في المجتمع في سبيل دخوله عالم "الغير المعمم" « عبر تعلمه" التماشي مع المعايير وتحمل دوره الجديد فيه، فإنه يكتسب القدرة على المشاركة في التفاعل الخاضع لقواعد وشروط، وبعد أن يكتسب هذه الفكرة للتفاعل فإن الطفل الذي ينمو بإمكانه كذلك أخذ موقف موضوعي من المؤسسات...» [1]

انظر: جان فرنسوا دروتيه (بإشراف)، معجم العلوم الإنسانية، مرجع سابق، ص1034.

** مفهوم الحقيقة عند تشالرز سندرس بيرس: تعتبر سنة 1907 فارقا مميزا لما يمكن أن يسمى منعرج فكري داخل فلسفة "بيرس" ولن ندخل في حيثيات هذا التبدل، بل سنهتم فقط بما قدمه بعد هذه السنة. ففي مقالته الشهيرة "كيف نجعل أفكارنا واضحة " 1878 كان ينضج في فكرة الربط بين المعرفة العقلية من منظور كانطي براجماتي لتحقيق أفكارنا في واقعنا ولتحقيق ذلك اقترح خاصية "الهدم والبناء"، الهدم هو تبديد المسائل المزيفة والقضايا الميتافيزيقية أما البناء فتبني المنهج التجريبي.

*** أنظر: بوطيب رشيد، مفهوم التواصل في الفلسفة، مجلة فكر ونقد، العدد 88، 2007، ص 61، وما بعدها.

1 -Habermas J, théorie de l'agir communicationnel T2, op.cit, p 130.

طبعا "ميد" Mead لا يهتم بموضوع "الشخصية" كما هو عند علماء النفس، بل إنه نظر إلى الذات الإجماعية في تطورها الثلاثي، أ) مرحلة المحاكاة في الأفعال، ب) ثم مرحلة اللعب، ج) وأخيرا مرحلة الإلمام باللعبة ضمن تقليد الأبوين، إلى الميل لاتخاذ أدوار مثل دور الأب، الإمام، المعلم...الخ كأساس لتكوين الذات حيث يحدث التكامل في المرحلة الثالثة حين يأخذ دوره في وسط الجماعة وسماها "ميد" بالآخر المعمم L'autrui généralisé " "فميد" يعالج تكوين الهوية في إطار: الأنا "le moi" والذات الجماعية "nous" ". أي بين الأنا الجزء العفوي المندفع والذات الاجتماعية وهي الجزء الاجتماعي والضميري الناشئ عن القيم والمعايير والتوقعات الاجتماعية.

تصور "ميد" الفرد كنتاج علاقات اجتماعية، وهنا تلمس أهمية الوحدات الصغيرة على عكس النظريات الاجتماعية قبله، ولقد اعتبر الذات الاجتماعية في ديناميكية من خلال سلسة يتم فيها التفاعل الاجتماعي عبر الاتصالات الرمزية (اللغة)، فباللغة يتعلم الطفل الضوابط الاجتماعية إلى أن يبلغ درجة «الذات المحددة ""كما رأينا من قبل فإن "ميد" يعيد بناء ظهور العالم السوسيوثقافي socioculturel كعبور إلى مستوى "وسيط تفاعل" أولا عبر رموز أولية ثم عبر اللغة. »1

«لاحظ تركيز "ميد" على الوحدات الصغرى بدل المجتمع في كليته؛ أي تفاعل الأفراد في المستوى الأصغر كجماعات، لذلك تقترب هذه النظرية من نظريات علم الاجتماع الما بعد حداثي الرافضة لتصور مجتمع كلي موحد يحكمه التاريخ أو التقدم، بل ما هو إلا تزامن به التعددية والتنوع دون أي مبادئ كبرى له»[2].

في الجزء الثاني من كتابه "نظرية الفعل التواصلي "العنصر الخامس تحول البراديغم Paradigme عند "ميد" Mead و"دوركايم" من "النشاط الغائي" إلى الفاعلية التواصلية فإن هابرماس يلاقي بين التفاعل الرمزي* "ميد" وفرضية الأصول المقدسة لأخلاق دوركايم وهو عمل يطمح إلى تجاوز التصور الفيبري للنشاط الغائي والعقلانية الذاتية.

1- Habermas J. Théorie de l'agir communicationnel T2. op.cit, p 130.

2- Ibid, p 133.

* "النظرية التفاعلية الرمزية: نظرية لتحليل الأنساق الاجتماعية تنطلق من الوحدات الصغرى Micro لفهم الكل (الوحدات الكبرى)، فتهتم بسلوك الأفراد كمدخل لفهم النسق الاجتماعي من حيث توقعات البشر بعضهم

يتحدث دوركهايم عن ميلاد اكبر المؤسسات الاجتماعية انطلاقا من روح الدين، وهذا يفتي في البداية أن القيم الاجتماعية تجد نفسها أصولا في الطقوس المقدسة، وبقدر ما تتكاثر هذه المؤسسات وتختلف بقدر ما تبتعد عن هذه الأصول الطقوسية*، لكن العلاقة تبقى قائمة حتى ولو كانت خفية ففي الحياة الاجتماعية لأكبر الحضارات كانت "الرؤيا إلى العالم "تقدم الشرعية للنظام القائم وتديم هيمنة والسياسية وبقاء المؤسسات المجتمع بشكل عام كما إنها تساير القيم الأخلاقية وتماسك الجماعة وهويتها أو القبيلة العلاقات البشرية على النظام الكوني كما تقحم هذا الأخير في التضمن الاجتماعي. إن هذا التطور الهام التي كانت تقوم به الصورة الدينية أي الربط بين الإنسان الطبيعية والمجتمع، كان له فائدة أين كانت الممارسات الطقوسية تقوم بعمل قبل لسانيPrélinguistique.

لقد ضمنت مجموعة من القيم والمعايير في المجتمعات التقليدية بقاء التضامن الاجتماعي وتماسكه كونها تعكس الوعي الجماعي، وهذا الوعي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعوضه نظام اقتصادي مثل ما نعيشه اليوم، الذي تقوده ألأفعال الموجهة بالمصلحة. إن المجتمعات الحديثة تقدم صورة أخرى، فتدميرها للأشكال التقليدية للتضامن جعل دوركهايم يشكك في قدرة الحياة السياسية الديمقراطية أو الأخلاق الكلية أن تعوضها "دوركهايم ينظر إلى المجتمع الصناعي الرأسمالي مدفوعا نحو حالة فوضوية ويرجع بدوره هذه الحالة "النظامية" إلى سيرورة تمايزات، التي كانت من المفترض أن تنبثق عنها قيم جديدة "على حسب قانون الطبيعة" هذه المعضلة تقيدنا بنوع من التشابه مع تناقضات العقلانية الاجتماعية عند فيير"على حسب هابرماس فان دوركهايم لم يجد حلا لهذه المعضلة، وكل ما يقوم به هو الهروب إلى الأمام.

لبعض ومن حيث الرموز فيتم التركيز على التفاعل الرمزي المشكل باللغة." انظر جان فرنسوا دروتيه، معجم العلوم الإنسانية، مرجع سابق، ص676.

* الملاحظ أن تحطيم الحداثة للنظم الاجتماعية القديمة خاصة الدين (الأخلاق) سبب خللا وعدم توازن عميق في المجتمعات المعاصرة.

5-4 اختلال التوازن بين العالمين وأزمة الحداثة*

لفهم سبب الاختلال الحاصل بين العالمين يعيدنا هابرماس إلى بداية تشكل ما يسميه أزمة الحداثة، فيقدم مخاطر الأزمة بأن يقسمها إلى ثلاث أزمات رئيسية: 1/ هي الأزمة الاقتصادية، 2/ العقلانية، 3/ والشرعية.

الأزمة الأولى:اقتصادية: وهي دورية في الرأسمالية فتناقض المجتمع الرأسمالي الواقع بين متطلبات الإنتاج الاجتماعي والملكية الخاصة للربح، يدفع الدولة إلى التدخل في المسائل الاقتصادية من خلال تقنينها إدارتها فيظهر الدور المتنامي للإدارة وسط اقتصاد يطالب بالحرية، ومنه فالأزمة تحدث أولا عندما لا ينتج النظام الاقتصادي الكمية الضرورية للخيرات القابلة للاستهلاك فتتحرك الأزمة نحو الميدان السياسي.

الأزمة الثانية: الأزمة العقلانية: تحدث عندما تعجز الدولة عن الاستجابة في نفس الوقت للحاجة إلى تخطيط الاقتصاد والحاجة إلى الإبقاء على الملكية الخاصة لتراكم رأس المال فيحدث خلل بسبب كمية القرارات العقلانية التي ينتجها النظام الموجهة إلى العالم المعيش Lebenswelt (G)، والاقتصاد فتخنق الأول ويضطرب الثاني.

وعدم حل هذا التناقض يفتح الطريق نحو أزمة الشرعية، كما «أن توسع الشبكات التبادلية Réciprocité للسلع والمال، يحدث اندماجا اجتماعيا وظيفيا قمعيا، يتراجع معه نموذج الاندماج الاجتماعي الطوعي في العالم المعيش»[1].

الأزمة الثالثة:أزمة الشرعية[2]: سببها انتقال الأزمة الاقتصادية إلى مجالات السياسة العمومية، فتحدث هوة بين الدوافع الضرورية لاستمرار النظام السياسي- الاقتصادي

---

* "تتجلى أزمة الحداثة في فقدان المعنى، أو لنقل تعدده، لدرجة انعدامه، ولدرجة تساوي في نظر الإنسان الغربي، الخير والشر الجميل والقبيح، ولم يعد يفهم من هو ؟ أو ماذا يريد ؟" انظر: زيادة رضوان، صدى الحداثة (ما بعد الحداثة في زمنها القادم)، المركز الثقافي العربي، ط01، الدار البيضاء، المغرب بيروت، 2003، ص 27.

1- Habermas J, Après l'état-nation, une nouvelle constellation, politique, Tr; Rainer Rochlitz, Fayard, 1998, p 80.

2- Habermas J, Raison et légitimité : problèmes de légitimation dans le capitalisme avancé, Tr; par Jean Lacoste, 1978, p11.

والدوافع التي ينتجها النظام السوسيوثقافي مما يؤدي إلى أزمة محفز أو دافع motivation*.

للشرح أكثر ونقول إن السلطة الحكومية تزيد من تدخلاتها في المجال الاجتماعي لحياة مواطنيها إي في المجالات المعيشة (العائلة، المدرسة، الثقافة)، عبر شبكة من المعايير الحقوقية وهي قوانين بيروقراطية تريد بها الدولة تنظيم الحياة السياسية والاجتماعية وإضفاء الطابع العلمي على الخدمات والاندماج الاجتماعي لصالح متطلبات الإدارة والاقتصاد**.

كخلاصة: إذا هناك مبالغة في أنتاج القوانين وتنامي إداري لضبط قطاعات الحياة الخاصة والعامة، وهذه الهيمنة المتصاعدة على الحياة اليومية للفاعلين تسبب لهم حالة القصور وتراجع الابتكار والفاعلية أمام التضخم القانوني الذي يعيق استمرار شرعيته «فالقانون لا يتطلب فقط قبولا، ولا يتطلب ممن يتوجه إليهم اعترافا واقعيا فقط، بل يتطلب أن يستحق الاعتراف به»[1].

« بذلك يظهر أن كل أزمة تحيل إلى مكان أو موضع آخر يجملها هابرماس في الحالات التالية:

إما أن النسق الاقتصادي لا ينتج القدر الكافي من الخيرات القابلة للاستهلاك.

إما أن النسق الإداري، يبالغ أو لا يتجاوز القدر الكافي من القرارات العقلانية.إما أن النسق الشرعي لا يولد القدر الكافي من الحوافز الدافعة لقبول النظام.إما أن النسق السوسيا ثقافي لا ينتج القدر الكافي من المعنى لتعليل الأفعال»[2]

* يقصد بالدافع: المبرر العقلي والنفسي الذي يدفع الفرد لاحترام النظام الاجتماعي ويحفزه على قبوله بإعطائه معنى مقنع للعيش وفقه.

**هذه المبالغة في العقلنة تذكرنا بمفهوم "ماركيوز هربرت": "القمع الزائد" الذي يراه في أن الحضارة تزيد من عن القمع الكافي لقيامها.

1 هابرماس، الحداثة وخطابها السياسي، مصدر سابق، ص 209.

2 -Habermas J, Raison et légitimité, op.cit, p74.

فالأزمة التي تحدث اليوم في النسق الإقتصادي للرأسمالية المتقدمة تنتقل إلى العالم المعيش ومن أعراضها المرضية صعوبة الإندماج 'intégration sociale' فعندما يسطر عقل أداتي على العلاقات الاجتماعية تغيب أرضية الانسجام والإجماع التي كانت حالة عادية وطبيعية في المجتمعات القديمة، تتزعزع الهوية الجماعية، ويصبح المجتمع فوضوي بدون عنوان، anonyme فإن الأزمة تظهر كحالة عدم القدرة على الإندماج في المؤسسات الإجتماعية».[1]

إضافة إلى الأزمة البيروقراطية الدولتية Etatique التي تتحكم في حياة الأفراد بشكل ساحق، تفرض الدولة "منطق التوحد" على الحياة الاجتماعية، فهناك تعارض شديد بين جسم الدولة الطامح للتنظيم والتنميط لزيادة السيطرة، وجسم المجتمع المتسم بخاصية التعدد والاختلاف والحرية، لان المجتمع مهما أطلقنا عليه اسما جامعا هو فهو في نهاية المطاف أفراد لهم مجالاتهم الحميمية الخاصة، وقبل أن يكونوا مواطنين هم بالدرجة الأولى بشر هو بالدرجة الأولى إنسان.

نخلص إلى أن هناك علاقة متبادلة بين أزمة الهوية ومشاكل الضبط، وقبل الحديث عن هذه الأزمة علينا أولا تقديم كيف نشأة؟، : "لفهم هذه الأزمة يجب، إذا معرفة الارتباط المتبادل بين الاندماج الاجتماعي اندماج النسق، هذين التعبيرين الاندماج الاجتماعي والنسق يأتيان من تقليدين مختلفين، فنقول عن الأول فيما يخص النظم المؤسساتية التي فيها تكون التنشئة الاجتماعية لذوات تتحرك وتتكلم، تظهر هنا تحت مظهر عالم معيش رمزي"[2] أما الاندماج داخل النسق فيخص النتائج القياسية لعقل أداتي وسائطه هي المال والسلطة" ونلاحظ الاختلاط بين هذين العالمين وكل واحد له نمط في الإدماج« وهما باراديغمان Paradigme مبرران لكن عدم التوازن بينهما هو الذي يسبب مشكلا».[3]

وهذه الحالة هي ما يسميها هابرماس "استعمار العالم المعيش": إن تزايد استعمار العالم المعيش من طرف النسق الاقتصادي والإداري أدى إلى ردود أفعال دفاعية تجد جذورها في عجز راجع لإمراض العالم التواصلي Pathologie de la communication، فتنبثق

1- Ibid, p15.
2- Ibid, p16.
3- Ibid, p16.

الصراعات الاجتماعية الجديدة كاحتجاج عن استحالة إعادة الإنتاج الثقافي، فالصراعات لا تولد فقط من مشاكل إعادة التوزيع كما كان يتصور ماركس، بمعنى الصراعات القديمة الموجودة في مركز الاقتصاد (سيرورة الإنتاج)، بل إنها تضاف إليها، صراعات جديدة تنقد "النمو" المتنامي للنسق على حساب العالم المعيش وبسبب استعماره له، والتهديد الذي يشكله للمجالات البنائية للتواصل.

يوافق هابرماس على بقاء الصراع الطبقي والاقتصادي كما أشار إليه ماركس لكنه يفتح جبهة جديدة لم يتفطن لها الكثيرون هي سيطرة النظام على الإنسان في حياته وعلاقته الاجتماعية وحتى مصيره، إن الحالة السلبية للمواطن اليوم تجعله يوكل كل أموره للتكنوقراطيين والخبراء الذين يمارسون وصاية حتى على ما يأكل وما يلبس، هذه الاستسلامية تضعف دافعة الناس في المشاركة الفاعلية في النظام.

العزوف من الانخراط في أي مشاركة اجتماعية أو سياسية سمة تظهر تدريجيا بسبب اللامبالاة وكأن كل شيء قادر على الاستمرارية بقواه الذاتية وتتقهقر من النفوس الإيمان بقيمة المشاركة السياسية المثمرة لاتخاذ القرار وهو ما يسبب ما يسميه هابرماس "أزمة الدافع" motivation، أما الأزمة الثانية: التي يراها هابرماس في "التكامل الاجتماعي" هي "أزمة شرعية"، لأن الدولة تفقد شرعيتها لعدم قدرتها على الانسجام بين الفئات الاجتماعية والحد من صراعاتهم، مما يدفع السؤال حول أحقية حكمها وضرورة وجودها، نعود ونلخص فنقول أن الأزمة تنتقل من نسق إلى آخر من الاقتصادي إلى السياسي إلى الاجتماعي والثقافي، فتظهر في هذا الأخير على شكل "أزمة الدافع" التي هي في الحقيقة أزمة تكامل اجتماعي، وتظهر في السياسية على أنها كما قلنا أزمة العقلانية تضخم لتغطية لأزمة الشرعية.

يتغلغل هابرماس إلى عمق الأزمة ويدرك أن المنبع الفياض للاندماج الاجتماعي الذي حطمته الحداثة هو "التضامن"، ولا يجد ورشة تبنيه من جديد إلا "فلسفة التواصل"، التي ترفع من نسبة العقلنة في حياة الإنسان أين تقوم الإجراءات القانونية التي هي نتاج عنها بتحقيق مبدأ الحوار داخل مجتمع ديمقراطي منفتح، يسن حق التواصل وحق المشاركة المتساوي والحر بين المواطنين.

ويجد هابرماس أحسن تعبير عن انتاجات العقلنة في العالم المعيش صياغة القانون loi، فالقانون يملك دورا رابطا بين النسق والعالم المعيش، أين يمنع استعمار الأول للثاني ويترك الفرصة للثاني للنمو والاستقلالية، ويحقق القانون تحول الحوار التواصلي إلى السلطة السياسية، إن هابرماس يوجه السهم بالشكل الصحيح، فيمنع تمزق التضامن Solidarité ويجعل البشر هم الذين يحققون إرادتهم.

إن زيادة العقلنة في العالم المعيش سيحدث التوازن المفقود للحداثة، فإعادة بناءه سيؤدي إلى تفعيل مكوناته البنيوية الثلاث»[1]:

أ- الثقافة: (كنظام رمزي).

ب- المجتمع: (نظام شرعي للانتماء إلى جماعة معينة).

جـ- الشخصية: (كفاءة الكلام parole والفعل لأجل التفاهم). وهي بدورها مرتبطة بالبعد الاجتماعي للفاعلين على الترتيب:

أ- العالم الموضوعي (عالم الأشياء).

ب- العالم الاجتماعي (الأخلاق العلاقات بين الأشخاص).

جـ- العالم الذاتي (التجارب المعينة الذاتية.

فعندها يحصل اتفاق الأفراد حول ما يحصل في هذه العوالم بذلك نصل إلى إندلام جراح الحداثة.

نعود ونقول إن القانون هو الوسط الذهبي بين النسق والعالم المعيش، وهو موضع التصليح وعودة التوازن، فالنظام الحقوقي لا يجب أن يبني فقط على وعي فردي ليبرالي، بل على إلزامية إقامة الحوار العام، فدولة القانون عليها بناء فضاء عمومي منفتح وتقيم توازنا بين مختلف مصادر "الضبط"، السلطة الإدارية والمال . والتضامن . وعلى القانون فتح الطريق، ممهدا للتطور الإدارية العامة النابعة من الحوار، والآراء "لتجسيد مواطنة Citoyenneté "تخلق تضامنا شاملا يحترم الحق في الاختلاف»[2].

---

1 هابرماس له "ميل خاص إلى ترتيب الأشياء ترتيبا ثلاثيا، من أشكال المعرفة إلى مراحل التطور الاجتماعي"، كريب إيان، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، تر: محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، 1994، ص345.

2 -Habermas J, Après l'état-nation, une nouvelle constellation, politique, , op.cit, p84.

كما قلنا فإن فكرة النسق اقتباس هابرماسي من نيكلاس لوهمان Luhman Nikolas (1927) الذي دارت بينهما حوارات ونقاشات طويلة (حوالي عشرين سنة)، أين تظهر الدوائر المغلقة والدائمة للنسق في ميادين شتى مثل: الاقتصاد والسياسة وحتى المعمار والفن حيث تكون ثنائيات وحلقات مغلقة ترفض ما هو خارج عنها.

وهذا ما جعلها أكثر فاعلية في استعمار العالم المعيش، وتبقى المعايير القانونية وحدها السبيل للحد من سلطتها وجبروتها لأن القوانين تتوسط عالم الأنساق (وهو تماما ما حلله بودريار* في حديثه عن المجتمع الاستهلاكي) والعالم المعيش (الشخصية، الثقافة، المجتمع ...الخ) فهي الورقة الوحيدة القادرة على تحقيق توازن بينهما.

فبواسطة القانون ترتبط من جهة بالحياة اليومية للناس، ومن جهة أخرى تضبط حركة الإنسان، فأمام انحسار الأعراف والتقاليد وجب تعويضها بما يسد الفجوات الاجتماعية ويقرب الناس بعضهم البعض، فالقانون سيلعب دور الواسطة(mediom)، من خلال الفضاء العمومي والنقاش ستتمخض آراء ومقترحات تصاغ في قوانين تحد من طغيان العالم المادي على عالم الإنسان.

---

* Jean Baudrillard جون بودريار سوسيولوجي وفيلسوف فرنسي ولد 27 جويلية 1929 في Remis وتوفي في 06 مارس 2007 بباريس تطورت أفكاره كثيرا في سنوات الستينات بعد إصداره لعمله: Système des objets et la société de consommation ترجم الكثير من الأعمال الفلسفية مثل الإيديولوجية الألمانية لكارل ماركس.

في كتابه La Société de consommation، طرح سؤال أولي هو: ماذا يعني الاستهلاك ؟

يظهر بودريار إلى أي حد أصبح الاستهلاك ينظم العلاقات الاجتماعية، فهو لم يعد وسيلة لإرضاء حاجاتنا الأولية، بل أصبح مكونا جوهريا لوجودنا. إنه يغير بشكل جذري الطبيعة والإنسان، سلوكاته وعلاقاته الاجتماعية، فالمالك يتحول إلى مملوك إلى عبد لما اشتراه، وكل سلعة تصبح صفة من صفات مشتريها. إن مجمع الاستهلاك مطالب بخلق حاجيات وأشياء، ثم يقوم بتحطيمها، ليخلق أخرى، بذلك يدوم وجوده، ومنه أخذت المادة السلعة مكانة الإنسان. الفرد تحركه أيادي خفية للشراء، الإنسان لا يقدر على الإنفلات من مجتمع الاستهلاك لأنها تستعمل طرائق مؤثرة ومتعددة، وأصبحنا بلا حول ولا قوة، أمام رموزها وإشاراتها وتأثيرها الإعلامي، فالدعاية تجعل من ظهور منتوج ما حدث هاما، وتحمل قوة على عدم مقاومتنا له. والهدف من كل هذه الآلة الإعلامية هو فقط دفعنا للاستهلاك، فنبهار أمام السلعة.

- Denis Huisman (Directeur de la publication), dictionnaire des philosophes, k.z, op.cit, pp 263265.

بدل أن تقرض الدولة أبوتها، ولا قلة أوليفارشية وصايتها، يشارك عموم الناس في "الديمقراطية التشاورية"، بذلك يدخل المجتمع المدني Société civile طرفا ثالثا مع السياسة والاقتصاد والتوجيه، وتعوض العقلانية الأداتية بأخرى تواصلية ويعوض اندماج النسق القسري باندماج عبر التواصل.

وأمام تتغير منابع صدور القانون ستختفي أمراض الحداثة وما سببته من انحرافات وتشويهات في التواصل، ذلك أن "التشويه يقع حينما تخفى وقائع الحياة وتقف القوانين عقبة بطريقة أو بأخرى بين البشر ومشاركتهم بصورة كاملة في عملية اتخاذ القرار وغاية العلوم النقدية القائمة على مصلحة التحرر هي الكشف عن التشويه القائم في التفاعل والتواصل وإصلاحه».[1]

إن أهم فكرة عند هابرماس هي كشفه لعملية تشويه التواصل وما تتعرض له من اضطراب وسوء فهم، فقد يكون ذلك من خلال التشويه الأيديولوجي المظلل بشكل منظم وقد يكون حتى نابع من طبيعة اللغة ذاتها التي تثير اللبس والغموض أحيانا، لذلك يباشر هابرماس عمله أولا عبر السياق العام، فيلتزم بخلق جو عام ديمقراطي يشجع على إشراك الجميع دون استبعاد ولا تهميش، باستعمال التفاهم بدلا من استراتيجية الإكراه.

إن «إعادة بناء" العالم المعيش تصبح مهمة ذات أولوية عند هابرماس تستوجب تشكيل نظرية عامة للإعادة البناء النقدي للمجتمع، وتنحدر منها مهمة إعادة بناء مكوناته وعلى رأسها القيمية كالأخلاق، فهابرماس يسعى إلى استشفاف أخلاق متضمنة في اللغة (رغم ما قوبلت به من نقد شديد فهو لا يزال متمسكا بها)، علما أنها أخلاق إجرائية يتم التواصل إليها عبر نقاش عقلاني حر، ندرس فيه قابليتها لأن تكون كلية، ذلك بأن تخص بالقبول والرضى الجماعي "بغية تحقيق ما يسميه "بياجيه" زحزحة تدريجية للانا عن المركز Décentrement– وبالمرة إزاحة للذات المتمركزة حول ذاتها – ومن ثمة التخلي عن تلك النظرة المركزية في تعامل الفهم مع العالم القائم».[2]

1- كريب إيان، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، مرجع سابق، ص349.

2 - هابرماس، إيتيقا المناقشة ومسالة الحقيقة، ترجمة: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى، بيروت، 2010، ص ص22 23.